

الأسرة المسلمة والتحديات

تأليف الدكتور

محمد بن لطفي الصباغ

مصدر هذه المادة :







بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين. أما بعد.

فهذه محاضرة ألقيتها في مدينة الدوحة[١]، تلبية لدعوة تلقيتها من وزارة الشئون الإسلامية في قطر، وكان ذلك في الموسم الثقافي الذي تنظمه الوزارة في شهر رمضان. وقد اقترح علي عدد من الذين استمعوا إليها أن أنشرها ليعم النفع بها، فاستجبت لرغبتهم الكريمة، وها أنا ذا أقدمها لإخواني وأخواتي من القراء والقارئات. سائلًا الله العلي القدير أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم، وأن ينفع بها من يقرؤها، إنه سبحانه كريم جواد.

أقدمها للنشر.. وأحوال المسلمين مؤلمة محزنة، فقد تداعت عليهم أمم الكفر يقاتلونهم ليخرجوهم من دينهم وديارهم.

فهؤلاء اليهود يعيثون فسادًا في أرض المسلمين: فلسطين، يخرجون الناس من بيوتهم ثم يهدمونها، ويسجنون شبابهم ويعذبونهم ويقتلون فريقًا منهم، ويعتدون على بيوت الله.. وترى الذين في قلوبهم مرض يوالونهم ويسارعون إلى ابتغاء مرضاتهم، وقد أخبرنا ربنا سبحانه بأن ذلك مستحيل، قال تعالى: ﴿**وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ**﴾ [البقرة: ١٢٠] وإنا لله

(١) كان ذلك في ١٦ من رمضان سنة ١٤١٩هـ.

وإنا إليه راجعون.

وهؤلاء النصارى ينكلون بإخواننا المسلمين في كوسوفا بعد البوسنة، وما نقموا منهم إلا أنهم مسلمون.. يذبحون ويقتلون ويعذبون ويخرجون المسلمين من أرضهم وأموالهم.. ويجعلونهم مشردين لاجئين.

ومن آخر أساليب الفتنة (والفتنة أشد من القتل) تهجير المسلمين إلى الدول الكافرة، ووراء الأكمة ما وراءها: إخلاء الديار الإسلامية للصرب، وتعرض أجيال المسلمين المهجرين إلى التنصير.. ونعوذ بك يا إلهنا من سكوت المسلمين.

وما كان هذا ولا ذاك إلا بسبب بعد المسلمين عن دينهم.

فأسألك اللهم أن ترد المسلمين إلى دينك ردًّا جميلًا، وأسألك يا الله أن تنتقم من اليهود والنصارى.. اللهم عليك بهم فإنهم لا يعجزونك، اللهم أرنا بهم قدرتك، اللهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم.

سبحانك لا نحصي ثناء عليك، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب، ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدًا. وصلى الله على محمد وآله، والحمد لله رب العالمين.

كتبه محمد بن لطفي الصباغ

١٤٢٠/١/٢٥هـ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ به من شـــرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليمًا كـــثيرًا **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّـــا وَأَنْـــتُمْ مُسْلِمُونَ﴾**.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِـــدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّـــهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

أما بعد:

فإن الموضوع الذي طلب إلي أن أحدثكم عنه هـــو: الأســـرة المسلمة: التحديات الداخلية والخارجية وسبل الوقاية.

وهذا موضوع مهم شغل بالي منذ ثلث قرن، وكنت أحاول أن أثيره مع العلماء الذين ألقاهم، وأبين لهم أن الخطر الداهم والـــدمار الماحق، يهدد أمتنا من هذه الثغرة.

ومن هنا فإني أتوجه بالثناء على من اقترح هـــذا الموضـــوع،

ليكون موضوع بحث العلماء الذين يزورون هذا البلد الكريم في هذا الشهر الكريم.

أيها السادة:

الأسرة لغة: الدرع الحصينة، ومن الرجل: أهله الأدنون وعشيرته، لأنه يتقوى بهم. وبهذا تتبين الصلة بين المعنى اللغوي الأصلي والمعنى الشائع الآن. وجاء في "المصباح المنير": (أسرة الرجل: رهطه).

إن الأسرة درع حصينة للأمة، ويجب على الأمة الواعية الغيور أن تحافظ على حصانتها. إن الأسرة هي الوعاء الذي يضم المثل العليا للأمة، ويضم القيم السامية والأخلاق الفاضلة.

و لم ترد هذه الكلمة في القرآن الكريم.

وقد وردت في حديث أخرجه أبو داود في كتاب الحدود، في باب رجم اليهوديين، برقم ٤٤٥٠ وفيه: (.. ثم زنى رجل في أسرة من الناس).

أما كلمة (العائلة) المستعملة في بعض البلدان بمعنى الأسرة فهي من الأغلاط الشائعة، فالعائل الفقير، قال تعالى: ﴿**وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى**﴾ [الضحى: ٨] والعيلة: الفقر، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ [التوبة: ٢٨].

فالمادة هنا يائية تقول: عال يعيل، على وزن سار يسير. وأما الواوية عال يعول، فبمعنى: كفله وقام به، وأعال الرجل، كثر عياله، والعيال: أهل البيت ومن يمونه الإنسان، الواحد عيل، مثل جيد جياد.

وقد قرر الإسلام مكانة عظيمة للأسرة، تتجلى في الاهتمام بشئونها في كتاب الله عز وجل، زواجًا ورضاعًا وتربية وإرثًا وطلاقًا ونحو ذلك.

وكذلك فقد اهتمت السنة بالأسرة اهتمامًا عظيمًا يظهر في النظر في فهرس أبواب كتب السنة كصحيح البخاري وصحيح مسلم والسنن الأربعة وغيرها.

وقد عنيت في حقبة من الوقت بدراسة هذه الجوانب في كتب السنة المطهرة، وأرجو أن تظهر هذه الدراسة منشورة في وقت قريب إن شاء الله تعالى.

واستطاعت الأجيال المتعاقبة أن ترسخ معاني إسلامية عميقة بشأن الأسرة في مجتمعاتنا.

وظلت الأسرة المسلمة في كل بقاع الأرض تغرس في أبنائها القيم الإسلامية، وعقيدة التوحيد، والأخلاق الإسلامية، وتنشئ أبناءها على ذلك، فكانت الصلاة والصوم من الأمور التي ينشأ عليها الفتى، لا يتركها أحد في ذاك المجتمع، كما قال القائل:

أما الصلاة فإني غير تاركها

كل امرئ للذي يبغي له ساع

وكذلك أركان الإسلام الأخرى يحرص على أدائها كل من وجبت عليه من أبناء هذه الأمة.

ولذلك كانت هوية أمتنا راسخة في أعماق شعوبنا على مر التاريخ.

والصراع بين الحق والباطل عريق في القدم، باق مستمر، كما قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ**﴾ [النساء: ٧٦].

وكما قال سبحانه: ﴿**وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ [البقرة: ٢١٧].

إن أعداء الله ــ من أهل الكتاب والمشركين والمجوس والشيوعيين والملحدين والعلمانيين ــ لم يكفوا لحظة واحدة عن العدوان على المسلمين، ومحاولة استئصال هذا الدين، وصد الناس عن سبيل الله، ولكنهم كانوا يرتدون على أعقابهم خاسرين، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ**﴾ [الأنفال: ٣٦].

وقد جاءت أحداث التاريخ تصدق هذا القول الكريم، فقد وضعوا الخطط، وجيشوا الجيوش، واخترعوا المذاهب الفلسفية والفكرية، وأنفقوا في سبيل ذلك الأموال الطائلة، بل بذلوا أرواحهم من أجل ذلك، ولكنهم باءوا بالإخفاق الذريع.

وبقي الإسلام محتفظًا بقوته، وبقي المجتمع مجتمعًا إسلاميًا. وليس من شك في أن للأسرة الدور الكبير في مواجهة هذا العدوان وفي صمود المسلمين.

جاء الصليبيون إلى بلادنا غزاة معتدين واستمرت حروبهم مائتي عام، ثم التتار، ثم الحملات الاستعمارية، ثم الكيد النصراني اليهودي.. وقد قوبلت هذه الحملات في الماضي بالاستنكار والمقاومة والجهاد. وقد أحس أعداؤنا وهم يحاولون هدم هذه الأمة بصلابة[1] هذه اللبنة وقوة هذا الحصن.. وأدركوا أن هدفهم الذي يمكن أن يحقق لهم مبتغاهم هو تحطيم هذه الأسرة، ففكروا وقدروا، وساعدتهم التقنية الحديثة، ووسائل الترفيه على إحكام خططهم المدمرة.

ومن أجل ذلك كان في الحقبة الأخيرة هجوم شرس مركز على الأسرة، استخدموا له كل القوى التي يمكن أن تصل إليها أيديهم، وما أكثرها اليوم!!

﴿**وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**﴾ [الأنفال: ٣٠].

لقد كان من خطواتهم الماكرة: القضاء على الخلافة الإسلامية، وهذه مصيبة كبرى وكارثة عظمى.. إذ كان في القرن الهجري

(١) يجوز أن نقول هنا (صلابة) و(بصلابة) قال تعالى: {**فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ**}. المصباح المنير.

الماضي زوال الخلافة لأول مرة في تاريخ هـــذه الأمـــة، وبزوالهـــا تزعزعت ــــ وا أسفاه ــــ الصبغة الإسلامية للفرد والمجتمع في أمـــة الإسلام.

وسنوا القوانين التي تخالف أحكام الأسرة المســلمة في بـــلاد المسلمين.

وجاءوا بأفكار دخيلة تحل محـــل الإســـلام ــــ بـــزعمهم ــــ كالقومية والوطنية والاشتراكية والرأسمالية وما إلى ذلك من هـــذه الأفكار، وحاولوا نشرها بين أبناء المسلمين.

وشنوا حملات على هذه الأسرة من طريق الفن، ووسائل النشر والإعلام من قصص وصحف ومجلات وإذاعات وتلفاز ومحطـــات فضائية ومسرح وسينما والإنترنت، وما زالوا في طريقهم ماضين.

ويساعد هذه الحملات المسعورة في أحيـــان كـــثيرة ســـيطرة الشهوات والنزعة المادية على سواد الناس.

سأتحدث في هذه الكلمة عن التحديات الخارجية أولًا، ثم عـــن الداخلية، وسأذكر سبل الوقاية مع كل تحد، إن كان ذلك بأيدينا.

وإني أعترف بأن هذا الموضوع كبير، ولا يمكن أن تفي بحقـــه هذه الكلمة، ولكني سأذكر معالم الموضوع.. وأطرح من خلالـــه المشكلات المتمثلة في هذه التحديات. وإني أريد أن أشير إلى قيمـــة الكلمة، إذا قيلت بالأسلوب المناسب، وفي الوقت المناسب، وكان الدافع إليها إخلاص قائلها الذي يجب أن يكون على علم ومعرفـــة ووعي بدينه وعصره وأن يتصف بالغيرة البالغة.

وكذلك فإن الفكرة إذا عرضت بالأسلوب المقنع وتبناها الناس جادين، لابد أن تأخذ طريقها إلى التحقيق بإذن الله.

وإن رسالات الأنبياء كان كلمات وأفكارًا ترمي إلى إسعاد الناس في الدنيا والآخرة، وقد سخر لها الله خلاصة خلقه من الأنبياء وأتباعهم، فعرضوها وبذلوا في سبيل نصرتها أموالهم وأنفسهم، فقامت عليها دول، وأثمرت حضارات، وأنشأت مجتمعات.

التحديات الخارجية:

ومن خلال هذه العرض السريع السابق يتبين لنا أهم التحديات الخارجية، والحق أن التحديات الخارجية التي تواجه الأسرة كثيرة، فكل ما يواجه المجتمع الإسلامي من عدوان ـــ بمختلف أنواعه الفكرية والمادية والسلوكية ـــ موجه إلى الأسرة، وسأورد بعض هذه التحديات التي تتمثل فيما يأتي:

القضاء على الحكم الإسلامي:

وقد تبع ذلك إحلال القوانين الأجنبية محل الشريعة الإسلامية، وفي ذلك ما فيه، فقد أبطلوا الحدود، وتبع ذلك زوال الصفة الإسلامية عن الحكم وقد كانت سائدة عبر العصور، وتبع ذلك أيضًا تحرك الكفار للاستيلاء على أقطار العالم الإسلامي.

واستيلاء الكفار على بلاد المسلمين نشر الفساد، وقويت شوكة النصارى واليهود فأصبح لهم شأن ـــ وأي شأن ـــ في بلاد المسلمين، وقد بدأ الفساد والسفور والحسور في نسائهم.

هل تصدقون ــ أيها السادة ــ أن نساء النصارى كن يتحجبن في بلاد الشام مثل النساء المسلمات، ثم بعد أن جاء المستعمرون خلعن الحجاب، ثم ما لبث أن تبعهم (الأكابر المجرمون) فخلعوا حجاب نسائهم.

وقد سبق أن عاث نابليون وحملته الصليبية المدمرة فسادًا، فعمل خلال وجوده القصير في مصر على نشر هذا الفساد.

والحقيقة أن هذا الموضوع له آثار كبيرة على الأسرة والكيد لها.

والتحدي الآخر: الكيد الصليبي اليهودي:

إن هذين المعسكرين ــ على ما بينهما من العداوة ــ متفقان على محاربة الإسلام، يقول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ [المائدة: ٥١]. ومن يقرأ "بروتوكولات حكماء صهيون" (١) ويطلع على خطط المنصرين يجد مصداق ذلك.

هناك أقوال جمعها بعض الشباب موثقة إلى أصحابها من اليهود والنصارى، فحواها أنهم يقولون: مهمتنا التي تحقق النصر لنا في

---

(١) صدرت لها طبعات كثيرة، منها ما نشره محمد خليفة التونسي بعنوان "الخطر اليهودي، بروتوكولات حكماء صهيون" الطبعة الخامسة، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ١٤٠٠هـ ــ ١٩٨٠م (وهي مصدرة بكلمة للعقاد).

حرب المسلمين هي إفساد أخلاقهم رجالًا ونساء، والقضاء على الأسرة المسلمة، وأحب أن تراجعوا ما فعله المستعمرون النصارى في بلاد الشام والجزائر، وما فعله المستعمرون النصارى في مصر وفلسطين والأردن والعراق، لتجدوا الأثر السيئ في الأسرة، لقد نشروا البغاء، وتطوعوا لهذا الهدف الهدام بإرسال نسائهم بغايا للمسلمين.

وكانت أحياء اليهود في كثير من بلاد المسلمين مقصودة من قبل الفجرة، لأنهم كانوا يجدون فيها ما يبتغون من الفواحش.

وكيد النصارى شيء يفوق التصور:

الاستعمار الذي أنشب أظفاره في جسم العالم الإسلامي في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين كان مدمرًا للحياة الاجتماعية، وتأتي الأسرة في أول الأهداف التي قصدها الاستعمار.

وكان يتعامل بدهاء وخبث مع الأقليات النصرانية الموجودة في بلاد المسلمين، وقد نشط التنصير، فأنشأ المدارس (الأجنبية) المختلطة، وشجع النصارى المحليين على المناداة بأفكار يمكن أن تروج لدى أبناء المسلمين، وبدأ يهاجم التعدد والطلاق، وهما من المزايا العظيمة التي جاء بها دين الله.

واستطاع هذا الاستعمار أن ينتزع من أبناء المسلمين من يبرأ من الإسلام ويهاجمه. وقد أحسن أحد الكتاب المعاصرين ــ وهو الأستاذ أحمد حسن الزيات ــ عندما أشار إلى ذلك فقال: (إن الاستعباد المادي دهمنا أمس على يد الآباء، وإن الاستعباد الأدبي

يدهمنا اليوم على يد الأبناء، وشتان بين استعباد كان عن اضطرار وجهل، واستعباد يكون عن اختيار وعلم.

والعبودية العقلية أشد خطرًا، وأسوأ أثرًا من العبودية الجسمية، لأن هذه لا تتعدى الأجسام والحطام والعرض، ومثلها مثل الجسم يرجى شفاؤه متى عرف داؤه، أما تلك فحكمها حكم العقل إذا ذهب، والروح إذا زهق، وهيهات أن يرجى لمخبول شفاء أو ينتظر لمقتول رجعة)[١].

وهؤلاء التلامذة هم الذين دعوا إلى الفاحشة باسم التحرر والروح الفنية، وألصقوا بأحكام الأسرة الإسلامية العيوب والنقائص، وقلبوا تلك المحاسن إلى مساوئ. ولله در البحتري إذ يقول:

إذا محاسني اللاتي أدل بها

كانت عيوبي فقل لي كيف أعتذر

وهم الذين نادوا بأن للمرأة مشكلة، والحق أنه كانت هناك مشكلة التخلف، ويستوي فيها الرجل والمرأة. وما زالوا يرددونها حتى أقنعوا كثيرًا من الناس بأن هناك مشكلة، والحق أنها مشكلة المجتمع.

وهل المرأة إلا أم أو بنت أو أخت أو زوجة؟

من من المسلمين يعادي هؤلاء؟! ورسول الله ﷺ يوصي ببر

(١) وحي الرسالة ١/١٧٩ الطبعة الثانية ١٩٤٧.

الأم، ويجعلها أحق الناس بحسن الصحبة[١]، ويوصي بالرأفة بالأولاد: بنين وبنات، وخص البنت بمزيد من الوصية فيقول: «**استوصوا بالنساء خيرًا**»[٢]، وأوصى بالزوجة خيرًا فقال: «**خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي**»[٣]، وقال: «**خياركم خياركم لنسائهم**»[٤]، وذكر أن من رزق بنات فأحسن إليهن كن له سترًا من النار[٥].

الأوضاع المادية الصعبة:

ليس من شك في أن معظم بلاد العالم الإسلامي تعاني وضعًا ماديًا صعبًا، وتتفاوت هذه الصعوبة من بقعة إلى أخرى.

وسبب هذه المعاناة انتشار بعض الأنظمة الدكتاتورية والاشتراكية في بعض هذه البلدان.

فبعد أن كان سواد الناس من الطبقة المتوسطة تحول قسم كبير من رجال هذه الطبقة إلى الطبقة الفقيرة.

وكذلك فقد كثرت الضروريات التي يتطلبها بناء الأسرة، كالثلاجة والغسالة والجلاية والمكيف وما إلى ذلك.

(١) رواه البخاري برقم ٥٩٧١، ومسلم برقم ٢٥٤٨.

(٢) رواه البخاري برقم ٥١٨٦، ومسلم برقم ١٤٦٨.

(٣) المسند ٢/٢٥٠، والمستدرك ١/٣، والترمذي برقم ٣٨٩٥، والدارمي ٢/١٥٩، وموارد الظمآن ١٣١٢، وسنن البيهقي ٧/٤٦٨.

(٤) ابن ماجه ١٩٧٨.

(٥) رواه البخاري برقم ١٤١٨، ومسلم برقم ٢٦٢٩.

فقد كانت هذه الأشياء من الكماليات.. أما الآن فقد أصبحت ضروريات.

وكذلك مشكلة السكن... إنها مشكلة مستعصية، فقوانين الإيجار وظلم المالك جعل استئجار بيت من المستحيلات، وشراء "شقة" أمر متعذر على الشباب، وهذا كله أخر زواج الشباب والشابات، فانتشرت العنوسة والعزوبة، وساد الفساد.

وقد كان الناس في السابق يقولون: المالك له بيت واحد، والمستأجر بيوت المدينة كلها له.

وهذه الأوضاع المادية ــ مع قلة التوجيه الديني ــ جعلت كثيرًا من الناس يقتنعون بفكرة تحديد النسل، هذه الفكرة التي تجند قوى الكفر كل إمكاناتها لتنتشر في بلاد المسلمين.

ذلكم ــ أيها السادة ــ لأن المفكرين الاستعماريين أدركوا أن الخطر الذي يتهددهم هو الإسلام، وما هو ــ والله ــ بالخطر، بل هو الحياة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾ [الأنفال: ٢٤] ولكنهم هكذا يتصورون، فكتب بعض مفكريهم من نحو خمسين سنة كتابًا ينبه فيه أبناء قومه، فذكر ما ملخصه:

إن الخطر الذي يواجه حضارة أوروبا ودينها كامن في الإسلام، لأمور أربعة:

* **الأمر الأول:** تكاثر المسلمين بالنسبة إلى الأوربيين والأمريكيين، وقال: لابد من العمل على إيقاف هذا التكاثر.

* **والأمر الثاني**: قبول الفطرة الإنسانية للإسلام، فهو يتفق مع الفطرة والعقل، ويقبله المثقف والأمي والبدوي والحضري، وقال: لابد من أن ندخل على هذا الدين الشبهات، ونعمل على تشويه صورته في أذهان الآخرين.

* **والأمر الثالث**: الموقع الاستراتيجي المهم لبلاد المسلمين، فلا غنى لأي أمة تريد أن تسود وتفرض وجودها على العالم من السيطرة على هذا الموقع وجعله منطقة نفوذ، ولا حاجة لنرهق أنفسنا وخزائن دولنا بنفقات الجيوش والحملات العسكرية، ويكفي أن نتخذ من بعض أبنائه عملاء لنا، يحققون أهدافنا، وينفذون خططنا، وإن لم يستجيبوا فلنستعن بالعسكر، وعلينا أن نعينهم ليقوموا بالانقلابات ويكونوا أيدينا ومندوبينا.

* **والأمر الرابع**: أن منابع الثروة موجودة في بلاد المسلمين وهي تشكل تكاملًا رائعًا، فلابد لنا من أن نضع أيدينا على هذه المنابع.

نعم قد قيل هذا، ونفذ هذا كله في بعض البلاد وهم طامحون إلى تنفيذه في البلاد الأخرى.

إذن فكرة تحديد النسل التي ابتدعوها وجدت في الأوضاع المادية القاسية مناخًا مناسبًا لنموها.

وهذه الفكرة ــ التي أقيمت (مؤتمرات السكان لدعمها ولتسهيل السبل لتحقيقها ــ فكرة خطيرة تعارض أصلًا من أصول الدين، وهو الإيمان بأن الله هو الرزاق ذو القوة المتين.

فهؤلاء الأولاد عندما يهبهم الله لواحد من عباده يتكفل الله برزقهم ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ**﴾ [الروم: ٤٠].

هذه هي الحياة تبدأ بمرحلة الخلق ثم الرزق ثم الموت ثم البعث، والذي يفعل ذلك هو الله ﴿**هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [الروم: ٤٠]، وقال سبحانه: ﴿**وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ**﴾ [الإسراء: ٣١]، وقال سبحانه: ﴿**هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**﴾ [فاطر: ٣]، وقال: ﴿**وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا**﴾ [هود: ٦].

ونحن رأينا بأعيننا ناسًا كانوا فقراء يتصدق المحسنون عليهم.. وما هي إلا مدة يسيرة حتى كبر الأولاد، واشتغلوا، فأصبحوا يملكون المليارات لا الملايين، فنقلوا آباءهم من حال إلى حال، ونحن نعرفهم بأسمائهم.

فالأولاد ليسوا مستهلكين فقط.. بل هم منتجون.

هذا تحد من التحديات، ويستحق أن يفرد بمحاضرة بل محاضرات، لتوعية المسلمين من خطره المباشر عليهم، وخطره البعيد على أمتهم.

هؤلاء الأعداء: لماذا يدعون في بلادهم إلى تشجيع النسل، ويعطون المكافآت لمن ينجب؟

وقد بلغني أن من خطط النصارى الموجودين في بلاد المسلمين:

نشر فكرة تحديد النسل بين المسلمين عن طريق الصحافة ووسائل الإعلام من إذاعة وتلفاز، وعن طريق بعض الكتيبات القائمة على الخداع والتهويل، وعن طريق الصيادلة النصارى الذين يحاولون تسهيل حصول المسلمين على حبوب منع الحمل ومراعاتهم في الثمن، في الوقت الذي يحذرون فيه أبناء ملتهم من استعمال هذه الحبوب.

يفعلون ذلك استجابة لتعليمات سرية تلقى إليهم من مراجعهم.

استغلال الشهوات:

أما هذا التحدي الذي يواجه الأسرة المسلمة فعله من أفتك التحديات التي تواجهها: والشهوات عديدة، وقد رصد أعداء الله هذه الشهوات فوظفوها في سبيل هدم الأسرة المسلمة.

وقد أشارت الآية الكريمة إلى بعض منها، وذلك في قوله تعالى: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ**﴾ [آل عمران: ١٤-١٥].

ومن أهم الشهوات: النساء، ذلك أن الفتنة بهن أشد من غيرها، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ما**

تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء» [١]، وكما ثبت عنه ﷺ أنه قال: «**إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»** [٢].

صدق رسول الله.. وحوادث الأيام والواقع المشاهد تؤيد هذا وتؤكده.

أجل، لقد حذر رسول الله ﷺ من الفتنة بالنساء، وشرع للمسلم حصنًا يعصمه من الزلل وهو الزواج، وقد رغب ﷺ في الزواج ترغيبًا شديدًا في أحاديث كثيرة، منها قوله ﷺ: «**يا معشر الشباب! من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»** [٣].

بل بين أن من رغب عن سنة الزواج ليس منه في شيء، قال ﷺ: «**إني أعبدكم لله وأتقاكم لله، ومع ذلك فإني أصوم وأفطر، وأنام وأقوم، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني»** [٤].

وقال: «**الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة، إن نظر إليها سرته، وإن أمرها أطاعته، وإن غاب عنها حفظته في نفسها**

(١) رواه البخاري برقم ٥٠٩٦، ومسلم برقم ٢٧٤٠.
(٢) رواه مسلم برقم ٢٧٤٢.
(٣) رواه البخاري برقم ١٩٠٥، ومسلم برقم ١٤٠٠، وأبو داود برقم ٢٠٤٦، والترمذي برقم ١٠٨١.
(٤) رواه البخاري برقم ٢٠٦٣، ومسلم برقم ١٤٠١، والنسائي ٦/٦٠.

وماله» [١].

ولكن أعداء الله ـــ ليحكموا الفتنة بالنساء ـــ وضعوا العراقيل أمام الزواج، من الدراسة الطويلة، وصعوبة تحصيل العمل، وصعوبة الحصول على المسكن، فتأخر سن الزواج عمليًّا عند الشباب والشابات في كثير من بلاد العالم الإسلامي، وقد نفروا من الزواج، لأنه بزعمهم عبء ومسئولية وتكاليف وحجز، ودعوه (قفصًا) أو (قفصًا ذهبيًا) [٢]... وبذلك أصبح عنصر الفتنة بالمرأة "ورقة رابحة" في أيديهم لإفساد الشباب والشابات.

وانظر يا أخي إلى هذه المعادلة الخطيرة:

عزوف عن الزواج وقلة في التوجيه وهجر لالتزام الشرع وتبرج الحسناوات وتزينهن وتبخترهن في الشوارع على مرأى من الشباب وقصص جنسية وأغان ماجنة ومقالات منحرفة وتمثيليات ساقطة وأفلام تثير الحجر وتشجيع على الاختلاط..

ماذا تتوقع أن يكون حاصل هذه المعادلة الخطيرة؟

إنه الجمع بين البارود والنار!

إنها الكارثة.. إي والله.

كتب الرافعي من حوالي ستين سنة مقالة عنوانها: "قنبلة

---

(١) رواه مسلم برقم ١٤٦٧.

(٢) وكرروا على المسامع: (إنه قفص ذهبي، من كان فيه يود الخروج منه، ومن كان خارجه يود الدخول فيه) حتى ألف الناس هذا الهراء.

بالبارود لا بالماء المقطر"[1] عالج فيها موضوع اختلاط الفتيات بالشبان، قال فيها:

(لا، لا، يا رجال الجامعة، إن كان هناك شيء اسمه حرية الفكر، فليس هناك شيء اسمه حرية الأخلاق.

وتقولون: أوروبا وتقليد أوروبا!! ونحن نريد الشباب الذين يعملون لاستقلالنا لا لخضوعنا لأوربا.

وتقولون: إن الجامعات ليست محل الدين، ومن الذي يجهل أنها بهذا صارت محلًا للفوضى الأخلاق؟

وتزعمون أن الشباب تعلموا ما يكفي من الدين في المدارس الابتدائية والثانوية، فلا حاجة إليه في الجامعات.

أفترون الإسلام دروسًا ابتدائية وثانوية فقط، أم تريدونه شجرة تغرس هناك لتقلع عندكم..؟

لا، لا، يا رجال الجامعة، إن قنبلة الشباب المجاهد تملأ بالبارود لا بالماء المقطر) [2].

إن اختلاط الشباب بالفتيات في هذه السن أمر يراد منه إفساد أخلاق الأمة، وإشاعة الفاحشة بين أبنائها وبناتها، وينعكس هذا دمارًا على الأسرة والمجتمع.

---

(١) كان ذلك في سنة ١٣٥٧هـ ١٩٣٧م عندما رفع طلبة الجامعة، طلبًا يلتمسون فيه إدخال التعليم الديني في الجامعة والفصل بين الشبان والفتيات.

(٢) وحي القلم ١٨٣/٣.

إنها كارثة، ذلك لأن الفرد إن وقـــع في شـــباك[1] الفاحشـــة تحققت الكارثة بالانحراف السلوكي أولًا.. ثم قد يتحول حالـــه إلى الانحراف الفكري والعقدي، ويرى أن الدين حاجز يحول دون المرء والاستمتاع وتحقيق الملذات، وليس من شك في أن اتصال الرجـــل بالمرأة في حقبة الشباب من أعظم الملذات.

وهل هناك كارثة أعظم من فقدان الدين؟

إنه والله للخسران المبين.

وقل مثل ذلك عن الفتاة، بل إن الكارثة بشأنها أعظم وأجـــل، لأن المجتمع قد يغفر للشاب زلته، ولكنه يوقع عقوبة القتـــل علـــى الفتاة التي زلت.

ونظرة في الصحف التي تذكر ما يحـــدث في الجـــرائم تقنـــع المرتاب.

وحب الأولاد شهوة، تصدر عن غريـــزة ثابتـــة في الـــنفس الإنسانية، وهي ـــ كما يسميها بعض العلماء المعاصرين ـــ غريزة الامتداد الذراري والأحفاد.

وقد كان الناس في الماضي يتفاخرون بكثـــرة الأولاد ويـــرون فيهم قوة للوالد، ونصرة له إن واجه عدوانًا، ومعونة له إن نزلت به فاقة، وسندًا له عندما يشيخ ويكبر.

هذه الفطرة شوهها أعداء الله، بالتخويف من الفقـــر بســـبب

(١) شباك: جمع شبكة. وشبكة الصياد: ما يصيد به.

كثرهم، حتى كان نفر من الناس في الجاهلية يقتلون أولادهم.. إذ سولت لهم الشياطين ذلك، فكانوا يئدون البنات خشية العار، ويقتلون الذكور والإناث خشية الافتقار، فنهاهم الله عن ذلك فقال: ﴿**وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا**﴾ [الإسراء: ٣١].

وقد ورد في الصحيحين[١] من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ:

- أي الذنب أعظم؟
- قال: «**أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك**».
- قلت: ثم أي؟
- قال: «**أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك**».
- قلت: ثم أي؟
- قال: «**أن تزاني حليلة جارك**». ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿**وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا**﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠].

وكنت قد قرأت كلامًا عميقًا عظيمًا للإمام الغزالي، إذ يقول

(١) رواه البخاري برقم ٤٤٧٧، ومسلم برقم ٨٦، وأبو داود برقم ٢٣١٠، والترمذي برقم ٣١٨٣، وأحمد ١/٣٨٠.

ما فحواه: إن إسقاط الحمل في الأيام الأولى جناية.

وإسقاطه بعد نفخ الروح فيه جناية أكبر.

وقتله بعد الولادة جناية أكبر.

قال الإمام الغزالي: وليس هذا ــ أي العزل ــ كالإجهاض والوأد، لأن ذلك جناية على موجود حاصل، وله أيضًا مراتب:

* وأول مراتب الوجود أن تقع النطفة في الرحم وتختلط بماء المرأة وتستعد لقبول الحياة، وإفساد ذلك جناية.

* فإن صارت مضغة وعلقة كانت الجناية أفحش.

* وإن نفخ فيه الروح واستوت الخلقة ازدادت الجناية تفاحشًا.

* ومنتهى التفاحش في الجناية بعد الانفصال حيًّا (١).

ذلك أن الحياة تبدأ منذ التلقيح، أما الروح فشيء آخر، قال تعالى: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا**﴾ [الإسراء: ٨٥].

ومن الشهوات: حب المنصب والجاه، والمبالغة في الحرص على الجاه مفسدة للدين، على نحو ما جاء في الحديث الصحيح: «**ما ذئبان جائعان ضاريان في حظيرة غنم أهملها أهلها وغاب رعاؤها يفترسان ويأكلان بأفسد لها من حرص المرء على المال**

---

(١) إحياء علوم الدين ٥٣/٢.

والشرف»[١].

والشرف يراد به: الجاه والمنصب والوجاهة.

فقد تغري المرء الضعيف الأنظمة المنحرفة بالمنصب الرفيع إن تنازل عن أمور تتعلق بأسرته وأهله.

فمثلًا: لا يمكن أن يكون وزيرًا أو موظفًا كبيرًا ــ في بعض الأحوال والبلاد ــ إلا إذا أخرج زوجته سافرة، وجعلها تختلط بالرجال!

ليس هذا خيالًا.. بل هو واقع قرأنا بعض الحوادث بشأنه، وشاهدنا بأعيننا نظائر لما قرأنا.

قال أبو الحسن الندوي: عرضت الحكومة البريطانية على محمد إقبال وظيفة نائب الملك في إفريقيا الجنوبية، وكان من مقاليد هذه الوظيفة أن حرم نائب الملك تكون سافرة، تستقبل الضيوف في الولائم الرسمية، وتكون مع زوجها في الحفلات.

فأشير عليه بذلك، فرفضها وقال: "ما دام هذا شرطًا لقبول الوظيفة فلا أقبله، لأنه إهانة ديني ومساومة كرامتي" [٢].

وكذلك ففي عدد من البلاد الإسلامية عرف سائد ــ وا أسفاه ــ وهو أن يستقبل المسئول وزوجته الضيف الرسمي

---

(١) رواه أحمد ٤٥٦/٣، والترمذي ٣٧٧/٣، والدارمي ٣٠٤/٢، وانظر شرح الحديث في كتابنا: "قضايا في الدين" ص١١٥ وما بعدها.

(٢) روائع إقبال، صفحة ٣٤.

وزوجته، تبعًا لما هو موجود عند الكفرة.

وربما لا يقتصر الأمر على الاستقبال والمصافحة مع الحسور والزينة، بل يتعدى ذلك إلى التقبيل والمراقصة!!!

وحب الرياسة والوجاهة مما تتطلع إليه النفس البشرية، فيكون ذلك سببًا لإفساد الأسرة وإفساد أخلاقها.

حدثني صديق قال: أعرف رجلًا له وجه إسلامي وسبقت له دراسة شرعية.. أتيح له أن يتولى الوزارة.. وكانت امرأته محجبة.. فتنازل عن حرصه على الحجاب، وأمر زوجته أن تخلع الحجاب، حتى لا يتهم بالرجعية، فإنه — بزعمهم — لا يليق بمن كان مثله أن يتولى وزارة.. وأصبحت زوجته تجاري نساء أكابر مجرميها!

ويتلو هذا الموقف الاختلاط المستهتر، والجلسات المختلطة التي تشيع فيها النكت الجنسية، والمعاريض لأمور يستحيا من التصريح بها... وقد يكون أكثر من ذلك.

الغزو الفكري:

وقد أشرنا إليه عند حديثنا عن الاستعمار، ونود هنا أن نذكر أثر هذا الغزو في هدم الأسرة:

- زلزل هذا الغزو مكانة الرجل الذي له القوامة.

نعم... زلزل هذه المكانة عند الزوجة فزين لها أن طاعتها لزوجها انتقاص لكرامتها، وأن عليها أن تثبت وجودها أمامه، فما هي ملزمة بطاعته في أي أمر يوجهه.

إنها إن رأت أن ما يطلبه منها يوافق هواها ومصلحتها أتت به، وإلا فلا تستجيب.

- وزلزل هذه المكانة عند الأولاد بنين وبنات، فالابن لا يرى أن طاعة أبيه ملزمة.

وكذلك البنت تذهب متى شاءت، وتعود متى شاءت، وتخرج متى شاءت، وتتصرف التصرف الذي يروق لها، سواء رضي الأب أم لا.

وللتمثيليات أثر في هذا.

- وهون من شأن المحرمات التي حرمها الإسلام مما يدخل في أحوال الأسرة: من أكل وشرب، ومصافحة للنساء واختلاط وسفور وحسور، وما إلى ذلك. وهذا أخطر شيء، ذلك لأن من استحل محرمًا معلومًا من الدين بالضرورة كفر، فالمرأة التي تنكر وجوب الحجاب تكفر، لأنها أنكرت أمرًا في القرآن.

التحديات الداخلية:

هذه التحديات أخرت الكلام عليها، لأنها أهم، ولأن إيضاحها يقودنا إلى معرفة سبل الوقاية. وهي النقطة الأخيرة في هذه الكلمة.

وأحب ــ قبل ذكر هذه التحديات ــ أن أقرر حقيقة ترد هنا في تقويم موضوع تحديات الأسرة، وترد كذلك عندما نبحث في واقع الدعوة إلى الله، وعندما نريد أن نكشف عن أسباب الضعف في هذا الواقع، وترد أيضًا عند دراستنا لكثير من أسباب تخلفنا..

وهذه الحقيقة هي أننا عندما ندرس واقعنا المؤلم نـــذكر الأســـباب الخارجية بإسهاب، وهي في الحقيقة تستحق الاهتمام.. ولكننا نقف عند ذلك، ولا نجاوزها إلى الأسباب الداخلية التي نحن صنعناها.

وهذا السلوك يريحنا، لأن ما نقوله كلام حــق، ولا يحملنـــا مسئولية مباشرة.

ولكن هذا التصرف غير موضوعي، وكان ينبغـــي أن تســـلط الأضواء على الأسباب التي هي متعلقة بنا.

إن الأسباب الخارجية ليست بأيدينا، وهي قديمة مستمرة، لأن المعركة بين الحق والباطل معركة موغلة في القدم ودائمة، ويحـــدثنا القرآن عن مواقف الأمم السابقة من الرسل، وهذه المواقف كلـــها تكذيب للرسل، وعدوان عليهم، واستهزاء بهم، وتصل أحيانًـــا إلى قتل هؤلاء الرسل الكرام.

ويقول الله تعالى بشأن الكفار وتصرفاتهم نحونا: ﴿**وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْـــتَطَاعُوا**﴾ [البقـــرة: ٢١٧].

يجب أن تذكر دائمًا أن من شأن الأعداء أن يكيدوا لنـــا، وأن يبذلوا قصارى جهدهم لإضعافنا وإذلالنا وهدم مؤسساتنا، ومـــن أهمها الأسرة، وإخضاعنا لسيطرتهم.

إن من شأن الجراثيم أن تفتك بالأجسام، فلا يجـــوز أن نلـــوم تلك الجراثيم، وننسى الإنسان المقصر في الاحتيـــاط والاحتـــراس، والحذر من ارتياد أماكن وجودها، والاحتكاك بالمصابين بهـــا، إن

اللوم كان يجب أن يوجه لهذا الإنسان الذي قصر في اتخاذ أساليب الوقاية ومحاربة الجراثيم وإبادتها.

إن الواجب يقضي على الإنسان أن يعد العدة لمقابلة عدوه ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، وأن يتسلح بكل أنواع الأسلحة التي تضمن له رد عدوان المعتدين.

وإننا لنقرأ في السيرة النبوية أخبار غزوة أحد، ومنها: أنه عندما أصابت المسلمين مصيبة، سألوا: أنى هذا؟ من أين هذا؟ فنزل في ذلك قوله تعالى: ﴿**أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [آل عمران: ١٦٥].

يقول: أصابتكم هذه المصيبة بسبب يعود إليكم.

وبعد ذلك لنشرع بذكر أهم التحديات الداخلية:

سأذكر ــ كما قلت ــ أهم هذه التحديات في نظري.. وهناك تحديات أخرى يمكن أن تضم إلى ما سأورده، لم أوردها رغبة في تقديم الأهم ورغبة في الإيجاز، وأتوقع أن هناك تحديات لم تحضرني الآن، لضيق الوقت الذي سجلت فيه هذه الأفكار، وقد تخطر لي فيما بعد.

١ – الجهل بالدين:

الجهل المطبق بالدين من قبل عامة المسلمين من التحديات الكبرى، وهذا واقع عام في العالم الإسلامي.

ورسخ الجهل هذا في كثير من بلاد المسلمين: كون الحكم في أيدي كفار مستعمرين، أو كفار من أبناء الأقليات، أو ممن ارتد عن الإسلام في فكره من أبناء المسلمين.

ورسخ هذا الجهل بالدين أيضًا: سيطرة العقلية الصوفية التي تنشر أفكارًا غريبة عن الإسلام، وتبحث في الغيبيات بحثًا تفصيليًا لا تؤيدها فيه النصوص الدينية الثابتة.

وكان لذلك تأثير على نظرة الناس إلى أمور الحياة التي تتصل بالأسرة وبالمجتمع من خلال التصور المغلوط للإسلام.

ومما يدل على الجهل المطبق: أن سيدة سألتني بالهاتف في شهر رمضان: هل الجماع يفطر الصائم؟ وقالت: إن زوجها يمارس معها ذلك في نهار رمضان! وقد ذكرت أنها تحمل الشهادة الثانوية!

ولما زرت أوروبا وألقيت هناك عددًا من المحاضرات كنت أواجه بأسئلة عن أيسر المعلومات، وكان الذين يطرحونها شبابًا عربًا مثقفين.

إن الزوج ــ في كثير من الأحيان ــ لا يعرف واجباته ولا يعرف حقوقه، وكذلك الزوجة، وطبيعي جدًّا أن يكون أولادهما كذلك.

إن كثيرًا من العقائد تفهم عند هؤلاء العامة على شكل معكوس.

فمن ذلك فهم عقيدة القضاء والقدر، التي كانت تدفع

المسلمين في الماضي إلى الجهاد والعمل والمشاركة في الحياة وتحرير البلاد والعباد من سلطان الشرك والظلم. أصبحت هذه الفكرة تحمل الناس على الرضا بحكم الكفار وسيطرتهم على العقول والأموال، محتجين بأن ذلك من القضاء والقدر.

وتجعل الرجل والمرأة لا يفكران في تغيير الحال التي هم فيها من التخلف، لأن ذلك بزعمهما من القضاء والقدر.

ومن الجهل بالدين: عدم اليقظة لمخططات الأعداء في هدم الأسرة.

وهذا التحدي نحن مسئولون عنه

إن كثيرًا من العلماء والواعظين لا يبذلون ما عندهم من العلم والمعرفة، ولا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، وإن كثيرًا من الآباء والأمهات لا يقومون بجهود لتلافي هذا الواقع المؤلم، فلا يتعلمون، ولا يعملون على تعليم أبنائهم أحكام الدين، بل يتركونهم للشوارع، ولأدوات الإعلام المسمومة، وللمناهج المدرسية التي قصرت في هذا المجال في معظم بلاد المسلمين فلم تهتم بدروس الدين، أو اهتمت بها على نحو يرضى عنه الطواغيت والكفار، فهي تبحث في أمور لا تتصل بحياتهم ولا بواقعهم.

إن تقصير العلماء والدعاة في النصح والتوجيه والإرشاد والتعليم كان من أسباب ترسيخ هذا الجهل بالدين. إن الشيطان موجود، ويعمل بنشاط كبير، والشهوات قائمة في طبيعة الناس التي خلقهم الله عليها، وإن النفس الأمارة بالسوء والهوى موجودان،

فيكف يترك هؤلاء الناس الناشئون ضحايا هذه القوى الشريرة الشرسة؟

إن القيادة الفكرية في معظم بلاد المسلمين ــ التي كان ينبغي أن تحول بين الأمة والانحراف ــ قد تخلت عن مهمتها للوعاظ الجهلة والمتصوفة الدجالين، وانتشار آراء هؤلاء سبب من أسباب الخلاف في الأسرة المسلمة، فقد أتى إلي زوج يشكو من زوجته قيامها بأمور مخالفة للدين، من قبيل البدع، كأن تسأل غير الله وتردد أذكارًا بدعية! فنهاها فما استجابت، واستفحل الخلاف في الأسرة وله منها أولاد، وهو في حالة من الكرب والشقاء لا توصف.

٢- البعد عن الدين:

وهذا ــ في الغالب ــ نتيجة للسبب السابق، فإذا كان المرء يجهل أمور الدين فكيف نتصور أن يكون أن يكون قائمًا بالواجبات ممتنعًا عن المحرمات؟

فلا الزوج يقوم بما أوجب الله عليه لزوجته وأولاده، ولا الزوجة تقوم بذلك، نتيجة للجهل والاستجابة للهوى والنفس.

ومن مظاهر البعد عن الدين: ضعف التوكل على الله، التوكل الإيجابي الذي يكون مع الأخذ بالأسباب.. فيكون ذلك دافعًا للأبوين إلى تحديد النسل.

ومن مظاهر البعد عن الدين: ضعف الشعور باليوم الآخر، وهذا أمر مهم جدًا، ولابد من الاهتمام بعلاجه من قبل العلماء

والدعاة وأجهزة التوجيه.

٣- إحلال الأعراف الجاهلية والعادات المحلية والتقاليد الاجتماعية محل الأخلاق الدينية:

وهذا السبب واضح في مناسبات الزواج وكذا في مناسبات الموت، ولأضرب على ذلك مثالًا واحدًا يتعلق بالمرأة، فكثير من الناس يمنعونها من الإرث، بل قد يمنعونها من الزواج، لكيلا تئول ثروة أبيهم إلى ناس غرباء!

ولا يسمحون لها بأن تظهر أمام الخاطب فلا يراها زوجها إلا ليلة العرس، وقد تكون مناسبة يرضى بها الزوج، وقد تكون غير مناسبة لا يأنس بها ولا يطيق النظر إليها، وفي هذه الحالة إما أن يكون الطلاق، إما أن يكون العيش النكد.

وهذه العادات والتقاليد تختلف من بلد إلى بلد، ولكنها في هذه البلاد جميعًا تسيء في عملية بناء الأسرة بناءً متينًا، أو في محاولة الإبقاء على الأسرة أمام هذه الأعاصير.

٤- اضمحلال الشخصية الإسلامية عند الرجل والمرأة:

إنك ترى في بعض البلاد الإسلامية رجلًا مسلمًا ورجلًا نصرانيًّا، وإذا أردت أن توازن بينهما فلا تكاد تجد فرقًا بينهما! وإنه ليؤسفني ويؤلمني أن أذكر هذه الحقيقة.

فقد يكون المسلم مقصرًا في أداء الصلاة أو تاركًا لها ــ والعياذ بالله ــ وقد يكون مسرفًا على نفسه بشرب الخمر ويأتي الفواحش

ويأكل الربا، ويكذب ويخل بالمواعيد، ويغش الناس في المعاملة، ولا يفكر إلا في ملذاته وتحصيله المال، فكيف يمكن أن تصمد هذه الشخصية للحرب الضروس التي تشن على الأسرة؟!

لقد مرت على أمتنا نكبات عظمى وكوارث سود، ولكن الشخصية الإسلامية ظلت تنهض من وراء هاتيك الكوارث والنكبات، والعواصف العاتية، وتقوم على قدميها وتنهض بالأمة، وتدفع بها إلى جادة السلامة.

لقد كانت تقوم على أنقاض الواقع المؤلم، وتعمل على استئناف الحياة الإسلامية الكريمة السامية، وهناك مثل على حيوية هذه الشخصية وأثرها الفعال:

سقطت بغداد سنة ٦٥٦هـ على يد هولاكو، وعاث التتار فسادًا وإفسادًا في ربوعها، ونكلوا بالعلماء والكتب، وخربوا البلاد وفعلوا الأفاعيل، ولكن الشخصية المسلمة ــ التي لم تضمحل في ذلك الحين ــ استطاعت أن تنتصر على هؤلاء الأعداء في عين جالوت سنة ٦٥٨هـ، كان هذا في الماضي.. أما اليوم فإننا ــ كما ذكرنا ــ لا نكاد نرى الفرق جليًا بين كثير من المسلمين وأعدائهم، ليس هناك من الفروق ــ في كثير من الحالات ــ إلا في الموقع الجغرافي والانتماء الطائفي، وإلا في الأسماء..

والفرق الشكلي أضحى سمة بين المتقدمين في السن، كما ترى في عجوزين حاسرتين تأتيان أفعالًا واحدة وتظهران بمظهر واحد، وكل ما بينهما من فرق أن إحداهما تعلق في صدرها مصحفًا ذهبيًا،

والأخرى تعلق صليبًا مصنوعًا من الذهب.

إن اضمحلال هذه الشخصية مكن لعوامل التخلف أن تظهر في الأسرة، وهذا أمر نحن مسئولون عنه وليس الأعداء.

٥- التأثر بالكفار وتقليدهم في اللباس والمسكن والتأريخ والعادات والمبادئ:

ورسول الله ﷺ نهانا عن تقليدهم فقال: «**من تشبه بقوم فهو منهم**» [١]، وقال: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، حتى لو أن أحدهم دخل جحر ضب لدخلتموه**» قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: «**فمن إذن؟**»[٢].

وأمرنا بمخالفة اليهود والنصارى في أحاديث عدة، وأراد لنا أن نكون أمة متميزة عنهم، ومما يؤكد معنى التميز: أن الشرع المطهر ألزم المصلين بقراءة الفاتحة في كل ركعة، فهم يدعون ربهم أن يهديهم صراط الدين أنعم عليهم من المؤمنين غير صراط اليهود وغير صراط النصارى، فالمراد بالمغضوب عليهم اليهود، وبالضالين النصارى، قال ابن أبي حاتم:

(ولا أعلم بين المفسرين في هذا اختلافًا) [٣] لأن رسول الله ﷺ هو الذي ذكر هذا التفسير.

---

(١) رواه أبو داود برقم ٤٠٣١، وأحمد في المسند ٣٦٣/٥.

(٢) مسلم برقم ٢٦٦٩، وابن ماجه برقم ٣٩٩٤.

(٣) تفسير ابن كثير ٣٠/١.

وأقنعوا نفرًا من أبنائنا أنه لا خلاص لنا من المظالم والواقع السيئ إلا بالتخلص من أي أثر للدين، وقالوا: لكم أسوة بأوروبا، انظروا كيف تقدمت لما تركت دينها؟

فردد هذه المقولة نفر من المخدوعين دون تفكير دون تفريق بين دين باطل يعارض الفطرة والمصلحة والعقل، ودين يوافق الفطرة والمصلحة والعقل، بين دين قائم على الخرافة والتحريف، ودين صانه الله وتكفل بحفظه.

وانعكس هذا الأمر الحادث على الأسرة تنكرًا للدين وخروجًا على قيمه.

٦- ضعف الشعور بالمسئولية وسيطرة روح اللامبالاة:

مع أن الرسول الكريم ﷺ يقرر أن الشعور بالمسئولية لا يجوز أن يتخلى عن الاتصاف به أحد يقول: «**كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، الرجل راع في أهل بيته وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسئولة عن رعيتها**»(١).

إن كل أب وكل أم ينبغي أن يشعر بالخطر الداهم الذي يواجه الأسرة وأن يشعر بمسئوليته في ذلك.

فالمدرسة ليست على الوضع الأمثل الذي يُطمأَن إليه، ووسائل الإعلام وأدوات تكوين الرأي العام كذلك، فلابد من أن يقوم

(١) البخاري ٨٩٣، ومسلم ١٨٢٩، وأبو داود ٢٩٢٨، وأحمد ٢/٥، والنسائي في الكبرى ٥/٣٧٤، والترمذي ٣/٣٣.

الوالدان بعمل إيجابي. وإن الذي يشعر بمسئوليته نحو أولاده وزوجته لا يمكن أن يكون لا مباليًا أبدًا.

وبإمكان كثير من الناس أن يصنعوا أشياء كـثيرة في الأسـرة عندما يبلغون المستوى المطلوب في الشعور بالمسئولية.

٧- العمل المتواصل:

وهو من الأمور التي تعرض الأسرة للدمار والوقوع في مخطـط الأعداء، ولقد أصبح رب الأسرة في بعض الأحيان عاجزًا عـن أن يجد الوقت الذي يجتمع فيه بنفسه أو بأفراد أسرته يوجههم ويحدثهم ويستمع إليهم، حتى إن زوجته لا يتاح لها أن تجلس معه وتتفـاهم معه على الخطة الرشيدة التي يجب أن يسير بموجبها أفراد الأسرة.

ففي الصباح يسارع إلى عمله، ولا يعود إلا لتناول طعام الغداء وأخذ قسط قليل من الراحة، تمنع خلاله الحركات والهمسـات، ثم ينطلق إلى عمله مرة أخرى ولا يعود في المساء إلا في ساعة متأخرة من الليل ليجد أهل البيت نيامًا.

وإذا كان هذا الوضع مستنكرًا صدوره من عامة الناس، فإنـه مستنكر بصورة أشد عندما يصدر من المتدينين ويكون اللوم لهـم أكثر، ذلك لأن هذا المتدين سيجد نفسه بعد مدة في واد، وزوجته وأولاده في واد آخر، وسيندم ولات ساعة مندم.

وهذا الشغل المتواصل ليس مقتصرًا على الرجل ـــ في عهـدنا ـــ، بل قد شمل المرأة ـــ في بعض الأسرـــ، فهي تترك بيتها سحابة النهار وتذهب للعمل الذي يتعب أعصابها وجسدها، ويكون شأنها

قريبًا من شأن الرجل، وكذلك التي لا تعمل تخرج من البيت لزيارة صديقاتها والثرثرة معهن فيما لا يفيد.

وتدع هذه وتلك أولادهما وإعداد بيتهما للخادمة، والله أعلم بمستوى هذه الخادمة وأخلاقها(١)، فيكون من ذلك الضياع التام.

والشغل متنوع، وأكثره في الكسب، وهناك نوع آخر عند نفر قليل من الناس، وهو ما يكون في الدعوة وإصلاح الناس.

وذلك خطأ في تصور الدعوة والعمل فيها، فالمرء مطالب بأن يصلح أهله أشد المطالبة، يقول تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ [التحريم: ٦].

ويقول: ﴿**وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا**﴾ [طه: ١٣٢].

٨- عدم تقدير المستقبل من قبل الأبوين:

كثيرًا ما يتصرف المرء تصرفات ولا يقدر أثرها في المستقبل، فقد يتصور أن سكوته عن أمر ما هين يسير، ولكن ذلك يهدم الأسرة هدمًا تامًا، وقد يخيل إليه أن أولاده صغار لا يفهمون ولا يستحقون أن يخصهم بجزء من وقته، فهو يستخف بهم وقد يسخر منهم، ولا يأمر أحدًا منهم بخير، ولا ينهاه أو يحذره عن منكر، ولا

---

(١) وقد رأينا بعض الخادمات منصرات مستخفيات يتسترن بالخدمة!

يقدر المستقبل.

ولا يدري أن هذا الطفل الصغير سيكون بعد مدة رجلًا كبيرًا قد يكون له شأن في البيت.. بل في المجتمع كله، بل إن الطفل الذي لا يتكلم يفهم كثيرًا ما يجري حوله.

ولقد حدثني أحد علماء النفس، أن هناك علمًا جديدًا انبثق عن علم النفس، هو علم نفس الجنين، وذكر أنه ألف كتابًا فيه، وأن الجنين يدرك بعض الأمور وهو ما يزال في بطن أمه.. فتأمل.

٩- تنازل بعض الرجال عن القوامة:

والقوامة من الأمور التي قررها الشرع المطهر للرجل، قال تعالى: ﴿**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ**﴾ [النساء: ٣٤].

وبذلك تترك إدارة البيت للمرأة، والرجل في الغالب أقدر على الإدارة والقيادة من المرأة.

ولا يعني هذا الكلام انتقاص المرأة، بل هذا مما يشاهد في واقع الحياة، وتقرره الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

قلت: إن ذلك ليس انتقاصًا للمرأة، لأن كل مؤسسة لابد لا من مدير، فلا يشعر الموظفون في الدولة ولا أساتذة الجامعات بالانتقاص عندما يكون عليهم مدير. والقوامة شأن تنظيمي روعيت فيه الفطرة.

والوضع الأكمل أن يتعاون الرجل والمرأة والأولاد الكبار، وأن يفيد كل منهم من رأي من يشاركهم المسئولية، ويشرك الرجل

زوجته في العملية التربوية وفي إدارة شئون البيت، ولكن القرار الأخير ينبغي أن يكون له.

إذا كانت المرأة حمقاء رعناء وتسلطت على إدارة البيت وتوجيه من فيه، كان لذلك مضاعفات غير محمودة، وكان ذلك الوضع من أخطر الأمور وأكثرها إيذاء.

فمثلًا قد ترى هذه الزوجة التي وصفناها أن تلبس بناتها لباسًا لا يقره الإسلام، بحجة أنهن صغيرات، أو بحجة أن الناس هكذا يعملون، أو بحجة مسايرة الزمان و"الموضة" الحديثة، وتنفذ ما تراه، والرجل موافق، لأنه تنازل عن القوامة.

وقد ترى أن تقوم بألوان الاستقبالات التي لا يقرها الإسلام، كالاختلاط المستهتر، وتنفذ ما تراه، ويضعف الرجل ويوافق، لأنه تنازل عن القوامة. وكذلك يكون الشأن في الأمور الأخرى.

إن إلغاء الرجل شخصيته في البيت خطر جدًا، وذو أثر سيئ على الأسرة، وهو من انتكاس الأمور، بل هو من أمارات الساعة.

١٠- تقصير الدعاة والحركات الإسلامية في إعداد المرأة الصالحة في هذا العصر:

فلقد فتحت للمرأة منذ القرن الماضي أبواب الشر والفساد كلها وأوصدت في وجهها أبواب الخير والصلاح جميعًا، فتحت لها أبواب السينما والمسرح و"البلاج" والفن، وقد كانت ممنوعة إلى عهد قريب من دخول الأزهر والمدارس الدينية الشرعية، وكذلك كانت ممنوعة من دخول المساجد، ولم يكن يسمح لها بدخولها إلا

في رمضان.

كان المجتمع في الماضي يسمح أن يصل صـــوت الإســـلام إلى المرأة، وذلك لأن المجتمع حينذاك كان قائمًا على الشريعة الإسلامية في شتى جوانب الحياة الاجتماعية، ولأن الشخصية المسلمة كانت ما تزال قائمة ومستقلة متميزة، ولأن الثقافة الإسلامية من قـــرآن وحديث وتفسير وتوحيد وفقه وأخلاق كان الإطار الثقافي الأصيل الذي تقع ضمنه عقول الناس جميعًا من عامة ومثقفين، وكان تـــأثر المرأة بهذه الثقافة عن طريق البيت الإسلامي وبواسطة الرجل تـــأثرًا جيدًا.

وجاء العصر الحاضر الذي حفل ــ وا أســـفاه ــ بالنكبـــات الملمات، فكان فيه أمران خطيران:

- تسمم مناهج التعليم.
- وتضليل أدوات التوجيه.

أما مناهج التعليم: فقد وضعت في معظم بلاد المسلمين مـــن قبل أعداء الأمة وأعداء دينها، وقد وضعت ليتخرج بهـــا الـــذكور والإناث على حد سواء.

فأصبحت المرأة معرضة لمخاطر الإلحاد والزيغ والشك في كل مقوماتها وكيانها الفكري والديني.

أما أدوات التوجيه: التي وصل تأثيرها إلى كل بيت فقد كانت بيد أناس لا حظ لهم من الخلق، ولا نصيب لهم من التدين.

وأهم هذه الأدوات: الإذاعة والتلفاز و"الفيـــديو" والســـينما والصحافة، وكلها معاول تهدم صرح الخلق الإســـلامي النظيـــف، وتزلزل أركان العرف الإسلامي القويم.

فكان من هذا وذاك جيل كثير من أبنائه وبناته متشكك قلـــق منهار الخلق، فاقد الانتماء والغيرة، فقامت الحركات الإصـــلاحية تعالج هذا الواقع بالنسبة إلى الذكور، وتعدد الوسائل التي استنقذتهم من الحال المؤلمة التي صاروا إليها.

ولم تعالج هذا الواقع بالنسبة إلى البنات، وخضعن في الوقـــت نفسه لمؤثرات باغية طاغية من التضليل والإغواء، فكان من ذلـــك انحراف وفساد كبير.

إن المرأة ـــ بالنسبة إلى كل مسلم ـــ أم أو أخت أو بنـــت أو زوجة.

أو ليس من الواجب علينا أن تحظى منا أمهاتنا وبناتنا وأخواتنا وزوجاتنا بالعناية بفكرهن وخلقهن؟

لا يجوز أن نسقط هذه الطاقات ـــ طاقات النســـاء ـــ الـــتي تشكل نحوًا من نصف المجتمع.

والشاب المسلم يعاني الآن من أزمة مستحكمة، لأنه لا يجـــد الزوجة التي تكون عونًا له على الطريق الشائك الصعب.

ألا حبذا لو ضوعف النشاط في صفوف النساء بكل الأساليب الممكنة.

وحبذا لو أقيمت محاضـــرات ودروس في المســـاجد خاصـــة بالنساء.

١١- ومن التحديات: قلة المجــلات النســائية الإســـلامية، وفقدان القصص الأدبية الجذابة الموجهة التي تلتزم الخط الإســـلامي في موضوع المرأة.

وقلة المتحدثين الناجحين الملتزمين في التلفاز والإذاعة، وقلـــة الكاتبين الموهوبين الملتزمين في الصحف والمجلات.

١٢- سيطرة النزعة المادية على كثير من الناس:

لابد أن تكون مصلحة الدعوة إلى الله مقدمة على الاعتبارات المادية، ولابد من أن تكون الحياة الأسرية السعيدة مقدمـــة علـــى الاعتبارات المادية.

إن كثيرًا من الخلافات الزوجية التي أصبحت تحـــديًا ضـــخمًا ناشئة عن الشح وعن سيطرة هذه النزعة.

وبعد، فإنه يدخل في هذا موضوع المهور والكماليات والهدايا والولائم في مناسبات الزواج والولادة ونحو ذلك، ويدخل أيضًا ـــ بسبب الناحية المادية ـــ غياب الزواج المبكر من قبـــل الصـــالحين، ويدخل أيضًا الخوف من الاستكثار من الأولاد.

هذه أهم التحديات الداخلية، وأما سبل الوقاية فقد ذكرناهـــا مع التحديات. والله سبحانه ولي التوفيق.

وصلى الله على محمد وآله، والحمد لله رب العالمين.

الدوحة في ١٦ من رمضان ١٤١٩هـــ ـــ ١٩٩٩/١/٣م